إضاءة

ما زالت الشعوبُ تبكي جلّاديها في واقعنا العربي وتحنُّ إليهم، وتتذكّرهم كشهداء وقدّيسين. كتابات الفيلسوف الهولندي خير ما تُشخّص هذه الحالة، كونها اعملت من شأن الحرية والمساواة لذا فهو أوّل منظّر للفصل بين السلطات وأوّل مفكّر حديث بالديمقراطية

رشيد بوطيب

طريق موصلة من العبودية إلى الحرية
سبينوزا والضحك

تغليف تمثال سبينوزا بالبلاستيك كاحتجاج على سياسة الحكومة في امستردام عام 2001 (Getty)

لم يشطحْ نيتشه حين ربَط الفلسفة بالضّحك، وحين أراد أن يضع ترتيباً لمنزلة الفلاسفة، «كلٌ بحسب المكانة التي يحتلّها الضحكُ لديه». وسنقرأ في «اسم الوردة» لأمبرتو إيكو، وهي رواية ضاحكة بامتياز، بأن «الكنيسة كانت تحرّم الضحك لأن الضحك يحرّر الإنسان من الخوف، ومتى تحرّر منه، لم تعُد به حاجة لإله».

ونعرف منذ هيوم أنّ الدين والخوف مترادفان، ولدى أوسكار وايلد، في رائعته «صورة دوريان غراي»، نقرأ ما قاله اللورد هنري وهو يهمّ كتفيه استخفافاً: «إنّ صدري يتّسع لكلّ شيء، ولكنه يضيق بالشقاء. نعم، أنا لا أعطف على الشقاء، فالشقاءُ بشع. الشقاء كريه، الشقاء يكسر القلوب، وأنا أرى أن اهتمام أهل هذا الجيل بألوان نوع من المرض، فالواجب أن نهتمّ بألوان الحياة الزاهية، بجمالها، بأفراحها، فخير لنا أن ننسى أوجاع الحياة».

إن سبينوزا واحد من أولئك الفلاسفة القلائل الذين سيُتقنون فنّ «القهقهة بالضحك الذهبي»، وقد اعتبره نيتشه شبيهاً له، وأحسّ بقليل من العزلة بعد أن تعرّف عليه. فسبينوزا، وإن بدا ديكارتياً، وحتّى وإن ظلّ العقلُ لديه المعيارَ الوحيد للحقيقة، سيرفض ثنائية الجسد والعقل لدى ديكارت كما سيرفض ثنائية الخالق والمخلوق والروحي والمادي. إنّ الإنسان نفسه سيضحَكي معه جزءاً من الطبيعة ولن يمتلك أي أفضلية على بقية الكائنات بعكس ما كان يقوله اللاهوت. ولكن ما يربط سبينوزا بالضحك النيتشوي هو إعلاؤه من قيمة الفرح باعتباره الهدف الأسمى لكلّ بحثٍ عن الحقيقة. ولن نقف على راديكالية هذه الفكرة إلا إذا حاولنا قراءتها من خلال سياقنا العربي، الذي سنجد أنّ فكره لم يكتشفْ الضحكَ ولا الفرح، لأننا لا نضحك في ظلّ الاستبداد. وربما يعود ذلك إلى سبب رئيسي وهو أن فكرنا لم يواجِهِ الاستبداد بشكل صريح، هل لجبن متأصّل فيه؟ أم لأن الاستبداد يخلق مفكّريه وكتّابه وشعراءه ورجالات إعلامه ورجال دينه، فيدخل المفكّر النقدي في حَجْر صحّي بإرادته أو ضدّها، أو يبتلعه فراش الزوجية، ظهير الاستبداد الأبدي!

في كتابه: «مقالة في اللاهوت والسياسة» (1670)، لن يتوقف سبينوزا عن التساؤل عن سبب تفضيل الشعب لواقع أن يكون عبداً للطاعة بدلاً من تحرير نفسه في ظلّ جمهورية متسامحة وليبرالية؟ وهو سؤال سيتردّد صداه بداخلي وأنا أرى كيف تبكي الشعوبُ جلاديها في واقعنا العربي وتحنّ إليهم، وتتذكّرهم كشهداء وقدّيسين. ولربما للأمر علاقة بالبنية اللاهوتية المستحكمة بالوعي واللاوعي العربيين، والتي تقوم «مهمّتها الحضارية الكبرى» على ترجمة العبودية لله إلى عبودية للحاكم. دعونا نُسمّي ذلك متلازمة عبد الناصر وإن غضب منّا تجّارُ المُمانعة.

وفي الكتاب نفسه سيفضح سبينوزا الأحكام المسبقة لرجال الدين مدافعاً عن فكرة أساسية، ترى أنّ حرية التفلسُف لا تهدّد الإيمانَ الحقيقي ولا السلام داخل الجماعة، بل إنّ حظرَ حرية التفلسُف هو ما يهدّد ذلك. ومنذ بداية كتابه، ينتقد بشدّة اعتماد الدين على الخرافات ويرى أنّ السبب وراء ذلك يعود إلى الخوف المتأصّل في الإنسان، ومؤكّداً، قبل «سيكولوجيا الحشود»، بأن الخوف هو أنجعُ طريقة للحكم. وقد كتب في شجاعة عن النظام المَلَكي المطلق: «إنّ السرّ الكبير للنظام الملكي ومصلحته الحيوية يكمن في خداع البشر عبر تزييف الخوف باسم الدين، الذي يريدون عبره إلجامَ الناس به، بشكل يجعلهم يقاتلون من أجل عبوديتهم، كما لو أن الأمر يتعلّق بخلاصهم».

وقد ظلّ سبينوزا منافحاً كبيراً عن الفصل بين الفلسفة واللاهوت وبين الدين والسياسة. وكتب يقول: «إنّه أمرٌ مُضِرٌّ بالدين والجماعة السياسية أن نعطي للمؤسّسات الدينية حقّاً تنفيذياً أو حكومياً»، وظلّ يعتقد بأنّ النظام القانون، حرّية الاعتقاد والتعبير؛ إنّ سبينوزا هو أب حداثتنا السياسية. فقرناً من الزمن قبل فولتير وكانط وعقوداً قبل لوك و«رسالته حول التسامح» التي نشرها في عام 1689، سيكون سبينوزا أوّل منظّر للفصل بين السلطات السياسية والدينية وأوّل مفكّر حديث بالديمقراطية الليبرالية».

لقد أوضح دولوز في كتابه: «سبينوزا، فلسفة عملية» (ترجمة عادل حدجامي)، بأنّ هناك ثلاثَ شخصيّات تحضرُ في كلّ أعمال سبينوزا: «العبد والطاغية والراهب». فالعبد هو الرجل الذي يخضعُ لانفعالاته الحزينة، والثاني هو ذاك الذي يحتاجُ إليها من أجل فرض سلطته، والثالث هو من يشعر بالحزن للشرط الإنساني. ويتفق الثلاثة حسب دولوز على شعورهم بالحِقد اتجاه الحياة. وما يجمع بين الثلاثة، لا ريب، هو إدانتهم للفرح. وسيقوم سبينوزا في «رسالة في اللاهوت والسياسة»، بفضح شخصيّة الطاغية والراهب، في حين سيقومُ بفضح العبد في كتابه «الأخلاق»، إنّه ذلك الرجل الذي يعتقد نفسه حرّاً، في حين أنه يخضع في الواقع لسلطة مخيّلته ورغباته وغرائزه وعواطفه.

> حظرُ حرية التفلسُف هو ما يهدّد الإيمانَ الحقيقي
>
> العبد والطاغية والراهب تحضرُ ثلاثتها في كلّ أعمال سبينوزا

إن كلّ الطريق الذي يقطعه كتاب «الأخلاق»، هو طريق من العبودية إلى الحرّية ومن الحزن إلى الفرح، يكتب فريدريك لونوار، فسبينوزا يبدأ كتابه «الأخلاق» بالإله الذي يعرّفه مثل الجوهر الفرد لكلّ موجود، قبل أن يُنهي كتابه بقسم مخصّص للسعادة القصوى وبين القسمين، يحاول سبينوزا إعادة تعريف الجسد والروح، موضّحاً أنهما ليسا بمُنفصلين، قبل أن يقترح تحليلاً دقيقاً لعواطفنا، والتي لا يتوجّب علينا محاربتها كما يقول الأخلاقويون، بل إعادة توجيهها عبر العقل ليعمد في النهاية إلى تفسير عبودية الإنسان الخاضع لعواطفه وليس لعقله، أما الخيط الناظم لكل الكتاب فهو الفرح.

(أستاذ فلسفة وكاتب من المغرب)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

لقاءات عشناها

يرى سبينوزا أنّ نتيجة للاحاسيس والافكار التي ألِفَتْ فينا منذ ولادتنا، وخلقت بداخلنا عواطف مختلفة. ان الحياة كلها، يكتب لونوار معلقاً على ذلك: «ترتبط باللقاءات التي عشناها. فاللقاءات السعيدة تدعم القوى الايجابية بداخلنا كالحبّ والفرح والثقة بالذات، واللقاءات التعيسة تحط من قوتنا وتبعث الحزن والخوف». ولربّما تكمُن نصيحة سبينوزا الينا، في تجنّب ما يملأ حياتنا عبوسا، والضحك حتّى من الالم الذي يصيبنا.

متابعة

دروب **الفلسفة** من الإذاعة إلى المكتبات
الفكر وفضاءاته العامة

ادل فان ريت، منتجة ومقدّمة برنامج «دروب الفلسفة»، خلال مؤتمر لـ«راديو فرنسا». 2011 (Getty)

تودّع الصحافية الفرنسية آدل فان ريت برنامجها ـ الأكثر استماعاً بين برامج إذاعة «فرنسا الثقافية» ـ بكتاب يضمّ مقابلات اجرتها خلاله

باريس ـ **العربي الجديد**

منذ إطلاقه عام 1971 على إذاعة «فرنسا الثقافية» (فرانس كولتور)، غرف برنامج «دروب الفلسفة» العديد من التحوّلات التي لم تتوقّف فقط عند تغيير اسمه أكثر من مرّة: من «دروب المعرفة» أوّل الأمر إلى «دروب المعرفة الجديدة» بدءاً من عام 2007، قبل أن يستقرّ على اسمه الحالي منذ عام 2017. ذلك أن البرنامج، الذي تناوب على الإمساك بدفّته عددٌ من المشتغلين في الفلسفة بفرنسا، تغيّرت هويّته مع تغيّر القائمين عليه، إلى أن استقرّ، منذ عام 2011، تحت إدارة آدل فان ريت، التي جاءت إلى العمل الصحافي بعد دراستها الفلسفة في «المدرسة العليا للمعلّمين».

سيخرج البرنامج من حُلّته التقليدية بعد سنوات قليلة من استلام فان ريت زمامه، وهي التي لم تخفِ من تحويل اسمه إلى «دروب الفلسفة»، رغم ما قد يرتبط بكلمة «فلسفة» من هيبة، إنْ كان عند المستمعين، أو حتى القائمين على البرمجة الثقافية، الذين يخشَون أحياناً من «نخبوية» و«صعوبة» التعبير الفلسفي وعدم جذبه، بالتالي، لجمهور كافٍ. لكنّ الواقع أبدى عكس ذلك تماماً.

فالبرنامج تحوّل، في السنوات الماضية، إلى أكثر برامج الإذاعة الثقافية الفرنسية تحميلاً واستماعاً عبر منصّات البودكاست الخاصّة بها، متجاوزاً كلّ البرامج «التاريخية» التي عُرفت بها الإذاعة الثقافية الأولى في فرنسا. نجاحٌ وضع اسمَ آدل فان ريت تحت الأضواء، ولا بدّ أنه كان الدافع إلى تعيينها، قبل أسابيع، مديرةً لإذاعة «فرانس أنتر»، أكثر إذاعات فرنسا جذباً للمستمعين (أكثر من 7 ملايين مستمع يومياً في عام 2021).

لم تشأ الصحافية، التي نشرت عدداً من الكتب حول تبسيط الفلسفة، مغادرة موقعها الذي شغلته لأعوام في البرنامج الفلسفي من دون ترْك وثيقةٍ وراءها. الحديث هنا عن كتاب «دروب الفلسفة: 25 طريقةً للعيش فلسفياً»، الذي حرّرت فيه مقابلاتٍ أجرتها خلال سنوات عملها، والذي صدر حديثاً في طبعة مشتركة بين دار «هيرشر» وإذاعة «فرنسا الثقافية».

يُعطي الكتاب صورةً عن واقع البرنامج الإذاعي خلال السنوات الماضية، حيث تُقدّم أعمال أكثر الفلاسفة والمفكّرين «صعوبةً»، مثل هيغل وكانط وسبينوزا، بأسلوب ممتع يمكن حتى لغير المختصّين بالفلسفة فهمه. لا يعني هذا «تبسيط» مقولات الفلاسفة المذكورين، بل العمل على تقديم أطروحاتهم انطلاقاً من ثيمات معيّنة، وهو ما يسهّل الدخول إلى تجاربهم من بوّابة «صغيرة»؛ تُضاف إلى هذا الاستعانة بمختصّين تعمّقوا في أعمال هؤلاء المفكّرين، ويستطيعون قولَ الكثير، بشكل واضح، حول إسهاماتهم. وبالتأكيد، تأتي أسئلة الصحافية الفرنسية لتشكّل حلقة الوصل بين هاتين النقطتين، حيث تساعدها خلفيتها الفلسفية، ورغبتها في تفكيك المقولات المعقّدة، على دفع ضيوفها المختصّين إلى توضيح مداخلاتهم وشرح عباراتهم التي قد تبدو صعبةً لقارئ غير مختصّ.

> يعطي الكتاب صورة عن طبيعة البرنامج في وضوح وتنوّع مواضيعه

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

وثائقي

نيلسون فريري الطفل ذو الأصابع المدبّبة
بيانو الموهبة والعزلة

يحكي الفيلم الوثائقي حياة العازف البرازيلي وعُرض مؤخّراً في مهرجان «ثقافة اللّغة البرتغالية» الذي اختُتم مؤخراً في «كتارا»

الدوحة ـ **محمد هديب**

نجَح المخرج الوثائقي البرازيلي جواو موريرا ساليس في الإقتراب من عبقري البيانو نيلسون فريري ليصوّره داخل وخارج البرازيل، على مدار عامين، ليكتمل الفيلم عام 2003. كان فريري وقتذاك في أواخر الخمسينيّات من عُمره، وقد بدا الرجل خيبًا ذلك الحياء المُزمن الذي لا يتعلّق بالبشر، بل بأيّ لمعة ضوء يُمكن أن تُربك عينيه، أي لمعة نهرب منها حتّى لا يتورّط في نجوميّة مُغرية، لكنّها مُكلفة لشخص حسّاس، مفاتيح البيانو تفتح على موهبته وعُزلته.

حضر فيلم فريري بقوّة في مهرجان «ثقافة اللّغة البرتغالية» الذي اختُتم مؤخراً في الحي الثقافي «كتارا» بالعاصمة القطرية، وكان فرصة فريدة لتقديم فيلم وثائقي يُقنع فريري الذي رحل في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي عن عمر 77 عاماً، بالتحدُّث بلغته الوطنية في البرازيل وهي البرتغالية، على هامش لغة الموسيقى التي يفرق فيها ولا تحتاج إلى ترجمة. متأخراً بدأت شركات التسجيل الشهيرة إنجاز أسطوانات لأعمال البيانو لموزارت وبيتهوفن وشومان وبرامز وديبوسي وشوبان أحد المفضّلين عند فريري، وصولاً إلى رحمانينوف. وقد ظهر فريري مُطوّلاً في مقاطع من حفلة وأثناء التدريبات على كونشيرتو بيانو لرحمانينوف، مثلما ظهر مع صديقة عمره مارتا ارغيريتش في عزف بيانو ثنائي.

لم يكن فريري مُنعزلاً خشناً، فهو لا يرفض عرض مُخرج أو لقاءً تلفزيونياً، إلّا أنّ على من يقابله أن يتحمّل مسايرة شخص وحيد راض بعزلته. يقول التوحيدي: «العزلة محمودة إلّا أنّها محتاجة إلى الكفاية. وما الكفاية إلّا القُدرة والاستغناء». فريري هو كذا، لا يريد سوى أن يكون حرّاً في اختياره القليلة.

إنّ الخشونة الكبرى هي ما عاينه فريري مع فقدان والديه في حادث سير عام 1967، وكان عمْره 23 عاماً، فزاد هذا من توحّده في البيانو، فلا تراه متوازناً إلّا حين يجلس على كرسيّه بزاوية قائمة، وتبدأ أصابعه القصيرة المدبّبة، تُخرج الجنّ، وينال تصفيقاً عاصفاً، ثم يهرب إلى الكواليس ويشرب كثيراً من الماء، كما لو أنّه محموم. هذا النوع من المبدعين لا يمتلك، أو يزهد في امتلاك أدوات التواصل التي تجعله طبيعياً أمام الكاميرا. إنّه حين تمازحه صديقته التي يعرفها، وهو في عمر 15 وهي في عمر 18، وتذكّره بأيام زمن بعيد، يضحك كطفل والسيجارة لا تفارقه، إلّا وهو يعزف أو يستحمّ أو ينام.

يمنحنا الفيلم لحظات معايشة، ولطولها، ربّما نسي فيها فريري وجود الكاميرا، بينما كانت رفيقته المبادرة دائماً وهي تمزح وتتمرّن معه، ثمّ فجأة تُعلن أنّ ثمّة مُشكلة في أحد مفاتيح البيانو، وتلجأ إلى الكولونيا لتنظيف المفاتيح كلها، ويستغرب فريري ويقول إنّه عادة يمسحها بالماء، وهي تردُّ بأنّ الماء يسبّب الرطوبة. كانت الكولونيا التي استعملها قديماً، وكان أحد محبّيها منذ صنعها إيطاليّ في المانيا قبل مئتي عام، ومنحها اسم رقم منزله 4711.

يحسد فريري عازفي بيانو الجاز، ويظهر وهو يتابع تسجيلاً لحفلة إيرول غارنر (1923 - 1977)، مفتوناً بالمتعة والنشوة والسعادة التي يعزف بها غارنر الضخم الذي يكاد يبتلع البيانو، وهو بالمناسبة كان يحفظ غيباً، إذ لا يعرف قراءة النوتة.

بهذه المتعة كان يعزف غارنر، وعظماء البيانو في القرن العشرين، وبعدهم أرثر روبنشتاين (1887 - 1982) وفلاديمير هورويتز (1903 - 1989) وغيمار نوفيس (1895 - 1979)، وأخيراً صديقته مارتا ارغيريتش (81 عاماً)، أمّا هو فحين يُسأل إن كان سيضيف اسمه إلى هذه الباقة التي ذكرها، فلا يأتي بشيء سوى الارتباك، وإخراج سحابة دخان السيجارة من منخريه.

تُوفّي فريري في منزله، وكان بعد سقوطه وتضرّر كتفه عام 2019 قد أجبر على عزلة عن العمل، فهجمت جائحة كورونا لتبعده أكثر. وجاء عرض الفيلم ليقدّم لمشاهديه في الدوحة سيرةً أحد أفضل عازفي البيانو في العالم، اشتغل عليها المُخرج بذكاء على مدى عامين، ليقترب أقرب مسافة ممكنة من مبدع ذي حساسية خاصة.

> مبدع زهد في امتلاك أدوات التواصل أمام الكاميرا

عازف البيانو البرازيلي نيلسون فريري في حفل بلندن عام 2011 (Getty)

فعاليات

ينظّم «المعهد الالماني للابحاث الشرقية» في بيروت محاضرةً بعنوان **هل الأنثوغرافيا الدينية ممكنة؟ الأنثروبولوجيا الإسلامية وإنهاء الاستعمار والموقف الأنثوغرافي**، تلقيها الباحثة **ياسمين مول**، من «جامعة ميشيغان» الاميركية، بدءاً من الثالثة والنصف من عصر الخميس، 30 حزيران/ يونيو الجاري.

مدن مستدامة في الشرق الاوسط وشمال افريقيا؟ عنوان يوم دراسي ينظّمه فرع «المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات» في باريس، بدءاً من التاسعة صباح الخميس، 30 حزيران/ يونيو الجاري، في مقرّه بالدائرة الثالثة عشرة في العاصمة الفرنسية. يشارك في الندوات نحو **15 باحثاً وباحثة يقدّمون اوراقاً ضمن اربع جلسات تتناول مسائل مثل المدن الذكية والتصميم الحضري.**

حتى السبت المقبل، تستمرّ فعاليات الدورة الثانية من **المهرجان الدولي للعود** في تونس العاصمة، بتنظيم من «النادي الثقافي الطاهر الحداد». المهرجان، الذي انطلق في الثامن عشر من هذا الشهر، كان قد اتّخذ صيغةَ محلّية العام الماضي، قبل أن **ينفتح هذا العام على موسيقيين آخرين من خارج تونس.**

عند الخامسة من عصر الغد بتوقيت لندن، تستضيف منصّة **عفكرة**، ضمن سلسلة «حوارات» التي تبثّها على حسابها بمواقع التواصل، الباحثة **هبة جويّد**، للحديث عن كتابها الصادر حديثاً بالإنكليزية: **لاجئ: كيف تحدّد الدولة إمكانيات الإنسان**. تعمل جويّد في قسم علم الاجتماع بـ«جامعة بوسطن» الاميركية.